في الاجتماع اللغوي

اللهجات الاجتماعية

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

تنشعب أحياناً لغة المحادثة في البلد الواحد أو المنطقة الواحدة إلى لهجات مختلفة تبعاً لاختلاف طبقات الناس وفئاتهم : فيكون ثمت مثلاً لهجة للطبقة الأرستقراطية ، وأخرى للجنود ، وثالثة للبحارة ، ورابعة للرياضيين ، وخامسة للبراديين ، وسادسة للنجارين ... وهلم جرا . ويطلق علماء الاجتماع اللغوي على هذا النوع من اللهجات اسم اللهجات الاجتماعية Dialectes sociaux تمييزاً لها عن اللهجات المحلية Dialectes locaux التي كانت موضوع حديثنا في المقال السابق

ويؤدي إلى نشأة هذه اللهجات ما يوجد بين طبقات الناس وفئاتهم من فروق في الثقافة والتربية ومناحي التفكير والوجدان ، ومستوى المعيشة ، وحياة الأسرة ، والبيئة الاجتماعية ، والتقاليد والعادات ، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف ، والآثار العميقة التي تتركها كل وظيفة ومهنة في عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التي يكثر ورودها في حياتهم وتستأثر بقسط كبير من انتباههم ، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات في غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم ... وهلم جرا ، فمن الواضح أن هذه الفوارق وما إليها من شأنها أن توجه اللهجة في كل طبقة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها ؛ فلا تلبث أن تنشعب اللهجة العامة إلى لهجات تختلف كل منها عن أخواتها في المفردات وأساليب التعبير وتكوين الجمل ودلالة الألفاظ ... وما إلى ذلك . وقد تذهب بعض اللهجات الاجتماعية بعيداً في هذا الطريق ، فيشتد انحرافها عن الأصل الذي انشعبت منه ، وتتسع مسافة الخلف بينها وبين أخواتها ، حتى تكاد تصبح لغة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها : كما هو شأن اللهجات الفرنسية المستخدمة بين طبقات اللصوص والمجرمين وبعض طبقات العمال Argots des voleurs, des malfaiteurs et des ouvriers

ويزداد في العادة انحراف اللهجة الاجتماعية عن أخواتها كلما كثرت الفوارق بين الطبقة الناطقة بها وبقية الطبقات ، أو كانت حياة أهلها قائمة على مبدأ العزلة عن المجتمع أو على أساس الخروج على نظمه وقوانينه . ولذلك كانت في فرنسا لهجات الطبقات الدنيا من العمال واللهجات السرية لجماعات المتصوفين والرهبان ، ولهجات المجرمين واللصوص ومن إليهم ، من أكثر اللهجات انحرافاً عن الأصل الذي انشعبت منه ، وبعداً عن المستوى العام لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية

ولا تظل اللهجات الاجتماعية جامدة على حالة واحدة ، بل تسير في نفس السبيل الارتقائي الذي تسير فيه « اللهجات المحلية » ؛ فيتسع نطاقها باتساع شئون الناطقين بها ، ومبلغ نشاطهم ، واحتكاكهم بالأجانب وبأهل الطبقات الأخرى من مواطنيهم ، وما يخترعونه من مصطلحات ، ويتواضعون عليه من عبارات ، ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار ، وتختلف أساليبها وطرق تركيبها باختلاف العصور وتطور الظروف الاجتماعية المحيطة بالطبقات الناطقة بها ؛ فلهجات العمال والمجرمين بفرنسا تختلف بعد الحرب العظمى اختلافاً بيناً عما كانت عليه

ألوان الصحافة وأنظمة الأحزاب ليعلموهم كيف تساس الجماهير في مختلف البلاد

خامساً — في أسبوع واحد يستطيع المدرسون أن يزوروا مع تلاميذهم معاهد التعليم في مراحله المختلفات ، ليُطلعوهم على الأساليب المعروفة في تكوين الأذواق والعقول

سادساً ، وسابعاً ، وثامناً ، وتاسعاً ... (؟!) إلى آخر الاقتراحات التي يراد بها أن يفهم المدرسون أن سطور الكتاب منقولة عن سطور الوجود ، وأن المدرس الحق هو الذي ينقل تلاميذه إلى آفاق المشاهدة والعيان ، ليهديهم سبيل الفهم الصحيح

وعندئذ لن يكون من الصعب أن يقرأ الطلبة كتاب حافظ عفيفي في حدود طاقتهم الفكرية والعقلية وأن يخرجوا منه بمحصول يرضى عنه أساتذة الجامعة المصرية ، وسبحان من لو شاء لجعل أولئك الطلاب طلائع الهداية للجيل الجديد .

زكي مبارك

قبل ذلك ؛ وتختلف فى القرن العشرين اختلافاً كبيراً عما كانت عليه مثلاً فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ولا أدل على ذلك من أن معظم القطع التى كتبها بتلك اللهجات فى القرن الخامس عشر الشاعر الفرنسى فرنسوا ڤيلون François Villon [1] لم يُستطع بعد فى العصر الحاضر حل جميع رموزها وفهم مدلولاتها

وتؤثر اللهجات الاجتماعية فى لغة المحادثة العادية تأثيراً كبيراً فتستعير منها هذه اللغة كثيراً من التراكيب والمفردات ، وبخاصة المفردات التى خصص مدلولها العام واصطلح على إطلاقها على أمور خاصة تتعلق بفن أو حرفة وما إلى ذلك . فلغة المحادثة العادية بباريس فى العصر الحاضر قد دخل فيها عن هذا الطريق كثير من مفردات اللهجات الاجتماعية وبخاصة لهجات العمال والمجرمين

ولا تتميز فى العادة اللهجات الاجتماعية بعضها من بعض تميزاً واضحاً إلا فى المدن الكبيرة حيث يتكاثف السكان ، ويزدحم الناس ، وتنشط الحركة الاقتصادية ، وتتنوع الوظائف ، وتتعدد المهن ، ويشتد النزاع بين الطبقات كنيويورك ولندن وباريس وبرلين فى العصر الحاضر وكبغداد فى العصر العباسى

وأهم أنواع اللهجات الاجتماعية ما يسمونه باللهجات الحرفية (نسبة إلى الحرفة) ، وهى التى يتكلم بها فيما بينهم أهل الحرفة الواحدة كالبرادين والنجارين والبحارة . . . وهلم جرا . وتتميز اللهجات الحرفية بعضها من بعض تميزاً كبيراً فى المناطق التى يسود فيها « نظام الطوائف » Regime des castes فتختص كل طبقة بحرفة أو وظيفة خاصة تكون وقفاً على أفرادها لا يجوز لهم ولا لأعقابهم من بعدهم الاشتغال بغيرها كما لا يجوز لغيرهم الاشتغال بها : كما هو الحال فى كثير من بلاد الهند ، على حين أنه فى الأمم الحديثة التى قضى فيها على نظام الطوائف ، فأصبحت الحرف حظاً مشاعاً بين جميع أفراد السكان ، يزاول كل منهم المهنة التى تروقه ، وينتقل إذا شاء من مهنة إلى أخرى ، وأصبحت الطبقات الاجتماعية غير واضحة الحدود ولا موصدة الأبواب على غير أهلها ، فى هذه الأمم تتداخل اللهجات الحرفية بعضها فى بعض ، ويتأثر بعضها ببعض ، وتقل بينها الفروق ، وتضعف المميزات .

* * *

هذا ، وقد خيل إلى بعض الباحثين أن « اللهجات الاجتماعية » لا تنشأ من تلقاء نفسها ، بل تخلق خلقاً ، وتبتدع بالتواضع والاتفاق بين أفراد الطبقة الواحدة ، وترتجل ألفاظها ومصطلحاتها ارتجالاً ، وتابعهم فى هذا الرأى بعض القدامى من علماء اللغة ؛ ولذلك لم تنل هذه اللهجات كبير حظ من عنايتهم

وليس لهذه النظرية أى سند عقلى أو تاريخى . بل إن ما تقرره ليتعارض مع النواميس العامة التى تسير عليها النظم الاجتماعية ، فمهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالاً ولا تخلق خلقاً ؛ بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها . هذا إلى أن معظم هذه اللهجات منتشر بين طبقات فقيرة جاهلة منحطة المدارك ضعيفة التفكير ، لا يتاح لمثلها أن تنشئ إنشاء لغة كاملة المفردات متميزة القواعد ، بل لا يتاح لها مجرد التفكير فى مثل هذا المشروع الخطير : طبقات المتسولين واللصوص والحدادين والصيادين . . . وهلم جرا

والحق أن « اللهجات الاجتماعية » لا تختلف فى نشأتها عن « اللهجات المحلية » التى تكلمنا عنها فى المقال السابق . . . كلا النوعين ينشعب عن اللغة الأصلية ويستمد منها أصول مفرداته ووجهة أساليبه وتراكيبه وقواعده ؛ وكلاهما تلقائى النشأة ينبعث من مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئون البيئة . وكل ما بينهما من فرق أن السبب الرئيسى فى نشأة « اللهجات المحلية » يرجع إلى اختلاف الأقاليم وما يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص ... على حين أن السبب الرئيسى فى نشأة « اللهجات الاجتماعية » يرجع إلى اختلاف طبقات الناس فى الإقليم الواحد وما يكتنف كل طبقة منها من شئون ، وما يفصلها بعضها عن بعض من مميزات فى شتى مظاهر الحياة

غير أننا قد نعثر أحياناً فى بعض اللهجات الاجتماعية على مفردات لا أصل لها مطلقاً فى لغة البلد ولا فى اللغات الأجنبية . ومفردات كهذه يغلب على الظن أنها قد اخترعت فى الأصل اختراعاً من بعض الأفراد وانتشرت عن طريق التقليد . ولكن

(١) شاعر فرنسى ولد بباريس سنة ١٤٣١ وتوفى سنة ١٤٨٩ . ولقد عاش فى وسط اللصوص والمجرمين ، واتهم أكثر من مرة بالسرقة والقتل . ومن أشهر مؤلفاته « العهد الصغير » و « العهد الكبير » Petit Testament; Grand Testament